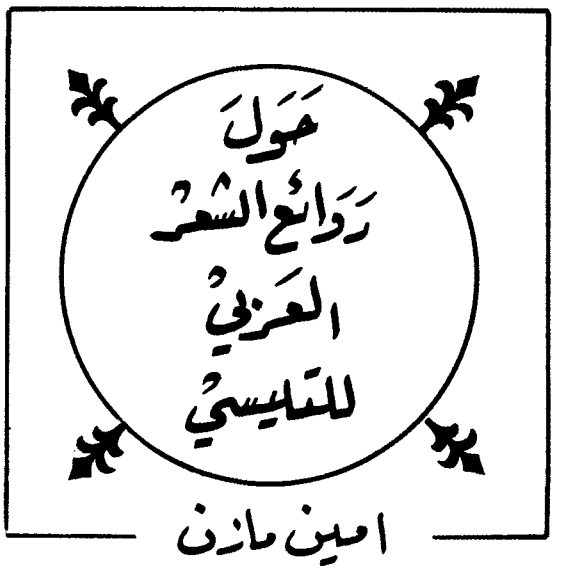


لم تستطع علاقة المثقف العربي بالتراث، أن تتجاوز موقفين لا ثالث لهما . . . موقفا يرى في هذا التراث المثل الأعلى ، وما سواه مجرد عبث وتكرار ، وهو ما اصطلح على تسميته بالسلفية التي عجزت عن مواكبة روح العصر ، وظلت على الدوام تعيش حبيسة فلسفة معروفة ، مفادها أن ليس بالامكان ابدع من كان . . . وموقفا اخر قفز الى رفض هذا التراث ، وأمسى يرى فيه ضرباً من ضروب التحجر والرجعية وعدم القدرة على ابتكار الجديد ، وهو الموقف الذي يمكن وصفه بالموقف المتسلق الذي يتجاوز القواعد الأولى من الحركة ، فيكون مصير الآخذين به في الغالب السقوط المؤكد سواء في بداية المشوار او حتى بعد قطع مراحل طويلة من الرحلة !

وربما كانت هذه النظرة شاملة ، اتفق فيها من يدرس المجتمع ، مثلما وقع فريستها من تصدي لدراسة أطر لإبداع المختلفة .

غير انها بالنسبة لدارس التجربة الشعرية العربية ، كانت اكثر وضوحا ، واشد تأثيرا على تطور اسلوب الشعر ، وتجدد الرواية الشعرية .

اجل، لقد كانت قراءة الشعر العربي لدى الكثير تقف دائماً في حدود الحماس الأجوف ، والحكمة السائرة ، والمثل المكرر وحتى عندما بدأت فكرة تقديم المختارات تطرق باب الأدب العربي الحديث، كانت النظرة التي تحكم أنظار الكثيرين ، أن الاختيار يعتبر من الأمور اليسيرة التي يمكن أن يقوم بها أي كان ، وبأي طريقة من الطرق ، ظناً منهم أن المسألة لا تعدو أن تكون نوعا من أنواع الاختصار، او الاختزال كما تقول المصطلحات الحديثة . وذلك بالرغم من أن فكرة المختارات كانت قد طرقت باب التاريخ العربي منذ القدم ، وبالتحديد منذ أن ظهرت مختارات الشاعر الخالد ابي تمام ، المعروفة بالحماسة الكبرى، والتي ينعقد الاجماع على تأثيرها في حفظ الشعر الحقيقي للأجيال .

ذلك يعني أن الموقف من التراث الشعري ظل في كثيرمن الأحيان لايجد الأهمية الكبرى ، حتى الأعمال التي ظهرت في عصر النهضة كثيراً ما جنحت الى المحدودية، او تعاني من التوسع غير الواعي ، او محصورة من جانب واحد من جوانب الشعر .

وهناك أمثلة كثيرة يمكن للمرء أن يتحدث عنها ، فشاعر مثل محمود سامي البارودي ، جاءت مختاراته وهي المؤسسة لهذا الفن ، تخلط بين الموضوع والتناول ، وتبعد عن روح الشعر في كثير من الأحيان بالرغم من أن هذا الشاعر كان في تجربته الشعرية معتمداً على القراءة الشعرية لا اكثر ولا اقل كما يقول الذين عاصروه ودرسوا شاعريته العظيمة . وكاتب مثل العقاد ، وهو من أكثر أدباء القرن العشرين اطلاعا على الشعر القديم ، واوسعهم إلماماً به ، وأقدرهم على تذوق كنوزه ، لم يعط كبير اهتمام لهذه المسألة ، اللهم الا من مختاراته المحدودة المتمثلة في الاستشهاد ببعض الأبيات الرائعة ، التي اعتمد عليها حين رفع عصاه الغليظة في وجه القصة القصيرة ، وهو يوشك أن يدخل مرحلة الشيخوخة من عمره الطويل . وكاتب مثل أدونيس، وهو اوسع الشعراء المحدثين دراية بالتراث الشعري واحتفاء به وتعويلا عليه واستفادة منه ، حصر اهتمامه من المختارات داخل الصورة الشعرية عندما قدم ديوان الشعر العربي في منتصف الستينات .

وهكذا ظل المجال فسيحا امام من يريد أن يتصدى للتراث الشعري بنظرة اوسع ، ومفهوم أشمل ، وظلت الحياة الأدبية العربية تحتاج الى مساهمة جادة في قراءة هذا التراث وتقدم منه ما يساهم في تكوين الشخصية الأدبية . وتجسد للأدباء ما يحقق سعة الاطلاع ، ويواكب روح العصر، ويزيل ما علق بأذهان الكثيرين من سوء الفهم وضحالة التكوين نتيجة الانصراف المفجع عن التراث الشعري .

وتلك هي المهمة الجليلة التي اضطلع بها الأديب المعروف الأستاذ خليفة التليسي ، عندما أصدر في مختاراته الضخمة روائع الشعر العربي وضمنه مقدمته المركزة ، ودراسته الموسعة حول قصيدة البيت الواحد ، تلك الدراسة التي كانت من الأصل مساهمة في اشغال ندوة ابن رشيق حول مشاكل النقد الأدبي سنة ١٩٨١ بتونس .

وقد انطلقت هذه المختارات من الشعر الحديث ، واخذت تبتعد قليلا قليلا حتى وصلت الى العصر الجاهلي ، كأنما اراد أن يقول لمن يريد أن يلج باب الشعر أن الطريق الطبيعي هو البدء من التراث ، وان القدرة على النبوغ في الجديد لا تأتى الا باكتشاف العظيم في القديم .

ذلك أن التليسي كان في معظم مختاراته محكوما بتلك النظرة التي عرف بها باستمرار ، وهي البحث عن التجربة الشعرية الصادقة .

غير ملتفت الى الجوانب الأخرى من الشاعر . قد تكون التجربة الشعرية قصيدة غزل جميلة . وقد تكون تصويراً للحظة حنان أبوي على طفل من الأطفال . وقد تكون بكاء على لحظة من اللحظات الحياتية خاصة كانت ام عامة . وقد تكون فخراً بمجد من الأمجاد أو تخليداً لمعركة من المعارك .

إنه المفهوم الذي طالما طبقه في الكثير من الدراسات النقدية التي أسهم بها في المحافل الأدبية. ذلك المفهوم الذي كان باستمرار موضع حوار وصراع فكري، انتزع التأييد مرة ، وأثار الخلاف مرات . على أنه كان دوما موضع تقدير واحترام لا حد لهما من كل من طرق باب الفكر ، وعني بمسائل الأبداع .

ولسنا نريد هنا أن نمعن من مناقشة هذا المفهوم النقدي ، او نذهب في تحليل أصوله ومنطلقاته ، فلقد طالما تعرضنا لجهود التليسي مبرزين ما اتفقنا معه ، وما كان موضع خلاف ، منذ أن اصدر كتاب الرائد «رفيق شاعر الوطن» قبل ما يقرب من عشرين سنة .

على أننا بعد كل ذلك ، نحب أن نلاحظ أن الكاتب وان كان قد ألمح الى أنه اقتصر في اختياره على القصائد التي دخلت من تكوين وجدانه الشعري ، الا أنه في الحقيقة قد جسد موقفا نقديا واضح السمات ، شاء ذلك ام لم يشأ.

وهذا الموقف النقدي ، يظهر في الحقيقة إزاء الشعر الحديث أكثر منه في الشعر القديم ، بل إنه يظهر في موقف الكاتب من التجربة الشعرية الحديثة، ومن المدرسة التقليدية الحديثة كما يقول الدكتور محمد مندور .

لقد صرف الأستاذ التليسي النظر عن قصيدة رفيق المهدوي المعروفة «رحيلي عنك عز عليّ جداً » في هذه المختارات ، بالرغم من أنه قد أشاد بها في كتابه عن رفيق ، وذلك لأن رأيه النقدي يقول بأن المختارات لا تصلح أن تكون مقياساً لشاعرية الشاعر ، تماما مثلما صرف النظر عن قصيدة الشارف « رضينا بحتف النفوس رضينا » وهي التي سبق أن اعتبرها ـ وكان محقا في اعتبارها من الأدلة القوية على احتفاء الشارف باسلوبه الشعري ، فهل لم يترنم التليسي بمثل هاتين القصيدتين في أي يوم من أيام عمره المديد، حتى وهو في بداية قراءاته الأولى قبل اربعين سنة ؟! .

الحق أننا لن نظلمه اذا قلنا انه لا يزال محكوما برأيه النقدي القديم الذي أعلنه في دراسته لشهيرة « هل لدينا شعراء» التي نشرت سنة ٥١ . بالرغم من أنه قد علق عليه في كتابه « رحلة عبر الكلمات » بأنه لا يخلو من نزوة الشباب .

ثم ما هي الإضافات الجديدة التي أخذها هذا الكاتب من شعر نازك الملائكة ونزار قباني ، وعبد الرحيم عمر ، ولم يجدها في شعر آخر كتبه امثال البياتي والفيتوري وغيرهما من الذين أتى عليهم في مقدمته الجريئة عن الشاعر على الرقيعي سنة ١٩٥٧؟

إننا نجد العذر كل العذر، ونقر الكاتب كل الإقرار ، لو كانت مختاراته قد توقفت عند الشعر المهجري ، ولم تقترب من الشعر الحديث، ونقبل تعليله بأنه قد انطلق في اختياره من التجارب التي أسهمت في تكوين وجدانه الشعري ، فالحق أن هذا الوجدان قد استفاد من الشعر المهجري بعد الشعر القديم ، وحسبنا ان نذكر درساته « هل لدينا شعراء » التي المحنا اليها منذ قليل ، وكان المثال المحبب لديه هو شعرفوزي المعلوف وغيره من شعراء المهجر . ذلك أن كل كتابات التليسي بشأن الشعر العربي كان تطويراً لتلك المفاهيم وتوسيعاً لها . اما المفاتيح الأساسية فقد تكونت منذ ذلك الزمان .

على أن كل هذه الملاحظات ، وغيرها من لا يتسع لها المجال ، انما هي تأكيد لأهمية هذا العمل الثقافي الضخم ، الذي يوفر سبل البحث والدراسة أمام كل من يريد الاقتراب من هذه الكنوز الشعرية الرافعة التي ظلت بالرغم من وجودها بعيدة عن الكثيرين حتى امتدت هذه اليد الكريمة التي ظلت على الدوام لا تمدّ لواقعنا الثقافي سوى المعدن النفيس والعسل المصفى .

**طرابلس ـ الجماهيرية**